فيلسوف العرب والمعلم الثانى

لمعالي الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا

هذا الكتاب من تأليف معالى مصطفى عبد الرازق باشا الرئيس الفخرى للجمعية الفلسفية المصرية . وهو أول كتاب فى سلسلة بحوث الجمعية التى تعمل على « إشاعة التفكير الفلسفى فى أوسع نطاق بنشر طائفة من المؤلفات فى تاريخ الفلسفة ، وما بعد الطبيعة ، والاجتماع ، وعلم النفس ، على أن تعالج حقائق هذه العلوم من أسهل الطرق وأقربها مأخذاً » على حد ماجاء فى التصدير

وكتاب فيلسوف العرب والمعلم الثانى يحقق هذه الأغراض كل التحقيق ، فقد عرض معالى مصطفى باشا للموضوعات بما هو معروف عنه من التحقيق العلمى ، مع نفاذ الفكر ، وعمق النظر ورقة الأسلوب ، وبراعة الاستهلال ، ولطف الانتقال .

وموضوعات الكتاب أوسع من عنوانه ، فإلى جانب فيلسوف العرب وهو الكندى ، والمعلم الثانى وهو الفارابى ، نجد الشاعر الحكيم المتنبى ، وبطليموس العرب ابن الهيثم ، وشيخ الإسلام ابن تيمية .

وإذ كان المقصود هو التعريف بشخصية هؤلاء الأعلام ، على الأخص وأن حجم الكتاب لا يتسع للاحاطة بتفصيل مذاهبهم ، فقد اكتفى معالى الوزير بتحقيق حياة بعضهم ، وعرض الجانب الفلسفى عند البعض الآخر ، وهى جوانب كلها طرافة . أنظر إلى ما كتبه عن ابن تيمية ، تجد قطعة من الأدب الرفيع استهلها بقوله « فى أواخر سنة ٧٢٨ هـ . كان فى قلعة دمشق إمام من أئمة المسلمين ، شيخ جاوز السابعة والستين من عمره ، يعانى ألم الإعتقال والسجن ، وحيداً ، ليس معه إلا أخ له يقوم بخدمته . وكان الشيخ يقاسى فوق ألم السجن ألما آخر ، هو على نفسه أشد وقعاً : فقد منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً . وكتب عقيب ذلك بفحم يقول : إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم » ... أليس هذا عرضاً للفلسفة بأسلوب الأدب .

(***)

واإسلاماه !

لأستاذ على أحمد باكثير

بقلم الأستاذ لبيب السعيد

بعد أن ردت مصر الصليبيين فى المنصورة المجيدة لم ينالوا من الإسلام خيراً ، خرجت إلى « عين جالوت » ترد التتار هم الآخرين ؛ ووقف سلطان مصر المظفر قطز على رأس جيشه يشحن بيده فى أعدائه الطغاة ، بيد أن هؤلاء مكروا مكراً كاد يرديه لولا أن برز فارس مسلم ملثم رد عليهم مكرهم وتلقى المكروه من دون السلطان ثم هتف وهو يعانى الموت : « عن نفسك يا سلطان المسلمين ، ها قد سبقتك إلى الجنة » .

لم يكن هذا الفارس سوى جلنار : زوجة السلطان وحبيبته . وقد جعل السلطان يقبلها ويقول لها فى ذهول وجزع : « وازوجاه ! واحبيبتاه ! » فنادته وهى تجود بروحها : « لا تقل واحبيبتاه قل : واإسلاماه ! » .

وانطلق السلطان إلى المعمعة يصرخ : « وا إسلاماه ! » . ورجاله معه يرددونها فيلقون فى قلوب الذين كفروا الرعب ، ولا يزالون يجاهدونهم ويغلظون عليهم حتى يجيئهم النصر ويشفى الله صدور المؤمنين .

تلك هى القولة التاريخية التى اتخذها صديقنا الأستاذ على باكثير عنواناً لروايته الجميلة .

***

كانت جلنار وقطز رفيقين فى جملة الرفيق أيام آل أيوب ، ولكن لها قصة حافلة بالعبر ، فهما سلالة بيت بعيد النسب فى المجد ، فأما هى فابنة السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، وأما هو فابن عمتها . وقد نزلت أفجع الأحداث بآلها فبادوا جميعاً فى ظروف تموج بالهول ، وسلم هذان من الموت ليباعا فى الأسواق ليذوقا ضروبا من الهوان . وفرق الدهر الشتيت بينهما أمداً ثم جمعتهما الأقدار أخيراً ليكونا سلطانى المسلمين وليكتبا فى تاريخ الإسلام صفحة جد نضيرة :

***

تجلو الرواية أياما مجيدة لسلف المسلمين . وفصولها جميعا تنطوى على رسالات سامية ، فهنا معرض خلق وبطولة باهرين ، وهناك حديث وطنية وتضحية مثاليتين ، وهنا دعوة قوية إلى

الاستمساك بالحق والحماسة له ، وثم حوافز للمجد وزراية على الضعف والضعفاء . ولكنك على كثرة ما تواجهك هذه المعاني لاتحس أن الكاتب تكلفها ، بل تدرك أنها — مع علو نمطها — ليست الشيء الذي وضعت له الرواية وتلك لا ريب من خصائص القصة الفنية الناجحة .

* * *

ولقد عرض المؤلف أشخاصاً يتعذر على القارىء نسيانهم لوفرة ما لذوا شعوره وناجوا ضميره . فكيف ينسى مثلا «ممدود» أبو قطز وصهر جلال الدين ووليه الحميم ومستشاره الحصيف الأمين ؟ وكيف ينسى « سلامة الهندى » الخادم الوفى الذى حمل الطفلين : قطزا وجلنارا — وكان اسماهما فى طفولتهما محمودا وجهادا — إلى الهند يوم أغرق نساء بيت « خوارزم شاه » فى اليم تفاديا من ذل الإسار ، والذى قاسى ما قاسى ابتغاء الوفاء ، والذى مات هما بالغلامين إذ بيعا فى أسواق النخاسة وجزعاً عليهما من تفرق الشمل ؟ وكيف يُنسى « غانم القدسى » السرى الصالح وزوجته البارة ؟ و « الحاج على الفراش » الخادم الخير الذى لا تمنعه ضآلة منزلته من إسداء الجميل ؟ و « ابن الزعيم » المحسن البار والوطنى المسلم المجاهد ؟

فأما « الشيخ عز الدين بن عبد السلام » العالم الذى لا يشترى بدينه ثمنا قليلا ، والسياسى الخالص العقيدة ، والمجاهد الصادق البأس ، والزعيم الذى يجد الناس فى زعامته أنوارا وآمالا ، فما ألطف وما أجل وما أنفع ما جرى به عنه قلم المؤلف فى روايته . إن القارئ كلما حكى المؤلف عن عز الدين شيئاً لتحويه موجات روحية ، وإن نفسه لتسمو وتسمو .

وفى الرواية صفحات أخرى كثيرة كأنها لعذوبتها فيوض من الشعر كتبها المؤلف بأسلوب مسيطر ينتزع للرواية منزلة طيبة بين الآثار الأدبية الطيبة .

فطفولة «جهاد» الحلوة ومعابثة أبيها إياها وطموح «محمود» وبطولته وغرامه بتدمير التتار وهو بعد فى طفولته يجتاز الحياة على جسور من الأوهام والأحلام ، والحب الأكيد بين الطفلين ، ومناجاة جلال الدين لأبيه حين أخطأ جلال وقسا على بلد إسلامى .. هذه كلها فيها جمال مؤثر ورقة تلفت القلوب ، وفيها دقة وحذق تساوقان علم النفس مساوقة ملحوظة .

والحب الذى كان بين قطز وجلنار ، الحب العظيم الذى كأن السماء كانت ترعاه ، والذى نعما به وشقيا ، هو فى كل مراحله من أمتع ما فى الرواية وأكثره استهواء للب وهزاً للعواطف .

حدث المؤلف عن الحبيبين فى فترة من أيامهما قال :

« وحليت الدنيا فى عينيهما فصارت رياضاً وأنهاراً وورودا وأزهاراً وطيوفا من ضياء الشفق البهيج ، وروحات من نسيم الفجر العليل يتقلبان منها فى أيام كلها أصيل وليال كلها سحر.

ومن مثل هذا النسق العالى كانت كتابة « باكثير » عن ذلك الحب الفائق ، ومن مثله كان وصفه للطبيعة فى بعض جنبات روايته .

* * *

بقى أن نعتب على مؤلفنا الموهوب ما حشد به روايته من أسماء كثيرة لأناس فى العهد الأيوبى لم تكن الرواية — فى رأينا — بحاجة إلى ذكرهم .

ونحن نستميح صديقنا المؤلف فى أن نسأله : ما هذه الحيدة عن الطابع الأدبى الخالص فى بعض أنحاء الرواية حين يسوق أحداث التاريخ غير مدبجة ببراع الأديب فلا هى خفيفة ولا هى محبوبة بل هى مجهدة للقارىء مزعجة إياه . لقد قال مثلا فى أحد المواضع : « فلما كان يوم السبت لست بقين من ذى القعدة سنة ٦٥٧ حصل كيت وكيت » فانظر كيف يثقل هذا على من يقرأ قصة أدبية محضاً . إن اللمحات بله العبارات الأدبية — وخاصة إذا كانت من أديب تمرّس بالقصة وتوفر عليها مثل مؤلفنا البارع — كانت كفيلة جداً بأن تشق لنا مسالك التاريخ فى الحدود التى تناسب روايته بوصفها أثراً أدبياً لا كتاباً تاريخياً . إن القصة الفنية كاللوحة — كما هو معلوم — والرسام يرسم الصورة للشئ القديم فيجعلنا بفنه ندرك تاريخ هذا الشئ ، دون أن يضع عليه اسم يوم أو شهر أو سنة . ألا وإن الفطرة الفنية المتواقة على نقيض العقلية العلمية لا تحفل كثيراً بالتواريخ ولا تعنى بالأسماء إلا بقدر . وأظن أن الأستاذ المؤلف إذا عنى بتقديم روايته لمسابقة وزارة المعارف فى الموعد الذى ضرب للمتسابقين أعجل عن بث مواهبه الفنية فى تلك الأجزاء . ولو فعل لكانت روايته يقيناً من أرفع الآثار الفنية لدينا .

* * *

وبعد فلا بدّ أن نقرر أن المؤلف كان فى جل روايته نافذ القوة ، وأنه — فيما خلا المواضع المشحونة بالتاريخ لغير داع فنى — بلغ فيما عرضه أقصى ما يبلغه مؤلف فى نفس قارئه من الانفعال والتأثر القوى .

لبيب السعيد